الوافدين مع الهجرة الثانية، آراء ابشتاين بأنها مجافية للواقع، ثم سأل باستخفاف: «أليس لنا شيء نقلق بشأنه سوى مصير العرب والفلسطينيين ؟»[٥٠]. غير ان اقوال آحاد هاعام وابشتاين تظل لها، فيما يتصل ببحثنا، اهمية خاصة، اذ انها تدل على ان مشاعر الجمهور العربي في فلسطين ازاء المشروع الصهيوني كانت واضحة للعيون البصيرة، وان لم يكن هذا الجمهور قد انتقل الى العمل المباشر ضد الصهيونية.

تأثير استلام الاتحاديين الاتراك للسلطة

في ذلك الوقت، وقع الحدث الذي كان له تأثير بالغ الاهمية في دفع مصائر البلدان العربية المشرقية، ومنها فلسطين، بعيداً عن ارتباطها الذي استمر قروناً بالامبراطورية العثمانية، مما كان بمثابة تمهيد غير مقصود لوقوعها في براثن الاستعماريْن، البريطاني والفرنسي، وتهيئة الظرف الذي تنبأ به آحاد هاعام، والذي سمح بتطور الوجود اليهودي في فلسطين الى حد كاف لتهديد السكان العرب، فاظهر رد فعلهم انهم «لن يسلموا مراكزهم بسهولة» على حد تعبير آحاد هاعام الذي اقتبسناه آنفاً. ونعني بهذا الحدث: الانقلاب الدستوري الذي شهدته الامبراطورية العثمانية العام ١٩٠٨.

كان حكم السلطان عبدالحميد، الذي استمر ثلاثة وثلاثين عاماً قبل سقوطه في العام ١٩٠٩، واجه اشكالاً متعددة من المعارضة، منها تلك التي نشأت وسط القوميات الكثيرة غير التركية التي تضمها الامبراطورية والتي تنشد الاستقلال او الاستقلال الذاتي، ومنها المعارضة التركية ذاتها الناهضة ضد الحكم الاستبدادي. وقد انضم المستنيرون من المعارضين الاتراك، ومعهم عناصر قليلة من قوميات اخرى، في جمعيات عديدة سرية، وكانت اهمها جمعية تركيا الفتاة ووليدتها جمعية الاتحاد والترقي التي انشئت كفرع لتركيا الفتاة في سالونيك واستقطبت ضباط الفرقة العسكرية الثالثة المرابطة في منطقة سالونيك. والانقلاب الذي نشير اليه بدأه هؤلاء الضباط الاتحاديون في سالونيك، ففرضوا على السلطان، في تموز (يوليو) ١٩٠٨، ان يعلن الدستور، ثم لم يلبثوا ان خلعوه، في نيسان (ابريل) من العام التالي، واضطلعوا باعباء الحكم في ظل السلطان محمد رشاد الذي نصبوه خلفاً لعبدالحميد المخلوع. وبهذا الانقلاب التاريخي، تم انتقال الامبراطورية العثمانية من الحكم الاستبدادي الى الحكم الدستوري الذي طال انتظاره. ولا يقلل من اهمية هذا الانتقال انه وقع متأخراً فيما كان عقد الامبراطورية يوشك على الانفراط، اذ ان الانقلاب قد عزز، على كل حال، الممارسة والفكر الدستوريين في الشرق، في بلدانه كافة، وكذلك الفكر التحرري بصورة عامة، وانفتح به الطريق ليس لعصرنة تركيا وحدها، بعد قرون من العزلة عن روح العصر وتطوراته، بل لدفع حركة استقلال البلاد العربية عن الامبراطورية العثمانية خطوات اخرى الى أمام. لقد حرص الاتحاديون على الاقتداء بالديمقراطيات البرجوازية في الدول الغربية، كما جهدوا في تعزيز وضع القومية التركية بين قوميات الامبراطورية كقومية سائدة، فأدى هذا، وذاك، وما رافقهما من محاولات التتريك، على نحو مركب، الى تطوير الحركة العربية القومية، مستفيدة من الحريات التي توفرت، والى انتقالها من المطالبين بالاستقلال الذاتي الى المطالبة بالاستقلال الكامل عن الامبراطورية والسعي لاقامة دولة عربية واحدة تضم اقطار المشرق العربي، وبضمنها، بالطبع فلسطين. ونالت فلسطين حصتها من هذا وذاك،